التاريخ:24/9/2010 الشيخ الطبيب محمد خير الشَّعَّال

سلسة فقه الأولويات

(أولوية العلم على العمل والفرائض على السنن)

الحمد لله، الحمد لله ثم الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا، وأشهد إن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن نبينا محمدا عبده ورسوله، خير نبي اجتباه وهدى ورحمة للعالمين أرسله.أرسله ربنا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون ولو كره المشركون ولو كره من كره.

اللهم صل على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، أما بعد:

فيا عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى فإن التقوى أفضل ما تواصى به الخلق ونحن يا قومي عما قريب ذاهبون يودع بعضنا بعضا. تودع صديقك تارة وقريبك أخرى، تودع جارك أخرى وشريكك أخرى، وفي يوم من الأيام لابد أن تذهب أنت إلى دار ليس فيها إلا الحسنات والسيئات، إنه من كثرت حسناته نجا ومن كثرت سيئاته فحاله غير حال النجاة، فقدموا لأنفسكم إنه من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومني عمل مثقال ذرة شرا يره.ثم أستفتح بالذي هو خير، يقول الله تعالى في محكم التنزيل:

قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرَّحمن:7-9].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ**)) [مسلم]

يشير كلا الدَّليلين إلى أنَّ للأمور الإيمانية والحياتية أوزاناً ومراتب، فبعض الأمور أوزنُ من بعض, وبعضها أهم من بعض, وبعضها أفضل من بعض، ويقضي الشَّرع والحكمة والعقل تقديمَ الأهم على المهم, والفاضلِ على المفضول والأحسن على الحسن..

عنوان خطبة اليوم: ((فقه الأولويات))

هناك أمر أهم من أمر وينبغي أن تقدِّم الأهم على المهم.

هناك أمور أفضل من أمور والأولى أن تقدِّم الفاضل على المفضول. هناك أمور أفضل من أمور والأولى أن تقدِّم الرَّاجح على المرجوح.

- في بلد إسلامي حرص بعض المتدينين الخيرين غاية الحرص على أداء شعيرة الحجِّ كلَّ عام وبعضهم يحجُّ سنوياً من أربعين سنة، وكان من بينهم مجموعة من الأقارب والأصدقاء والشُّركاء قاربوا المائة تعاهدوا من سنوات أن يشكلوا مجموعة ويذهبوا إلى الحجِّ كلَّ سنة.

وفي سنة من السِّنين لقيهم بعض العلماء وأخبرهم عن حاجة بلدتهم الماسَّة إلى مدرسة شرعية تعليمية وأشار إلى أن تكلفة حجِّ المائة تقارب احتياجات تشغيل هذه المدرسة التي أوقفها أحد المتبرعين.

قال: أنتم مائة وما تدفعونه في الحجِّ كلَّ سنة يشغل مدرسةً أوقفها أحد المتبرعين لكنها بحاجة إلى نفقة تشغيلية، فما رأيكم لو استبدلنا هذا بهذا.

فقالوا: إنَّنا كلما جاء ذو الحجَّة أحسسنا برغبة لا نستطيع مقاومتها للحجِّ والمناسك ونحس بأرواحنا تحلِّق هناك ونشعر بسعادة غامرة كلَّما شهدنا الموسم مع الشَّاهدين.

ترى أيهما أوزن عند الله وأثقل في ميزان الحسنات وأدوم نفعاً وأكثر خيراً وأعظم درجةً وأبقى أثرا!!!؟

ذهابهم إلى الحجِّ أو تقديمهم نفقات الحجِّ لذلك المركز التَّعليمي ليصار إلى تشغيله وإعماله!!؟؟

- في رمضان المنصرم اتصل أحد المتبرعين الكبار بإحدى الجمعيات الخيرية يطلب إليهم مراجعته في معمله ليستلموا مبالغاً مالياً من زكاته إضافةً إلى حقائب وضع فيها وجبات غذائية ومواد تموينية، كان قد أعدَّها ليتولوا عنه إيصالها إلى المحتاجين.

لما ذهب القوم ورفعوا المواد إلى سيارة التَّحميل والشَّحن همس أحد المستخدمين العاملين في المعمل في أذن موظف الجمعية فقال:

إذا كان بإمكانكم مساعدتي بواحدة من حقائب المواد التَّموينية فإنَّني بأمس الحاجة إليها، ولما تحروا وضع هذا العامل وجدوه صادقاً محتاجاً.

أيُّهما أهم وأفضل وأحسن النَّفقة على القريب أم النَّفقة على البعيد؟

العامل الذي في معملك هو قريب منك، القرابة أحياناً قرابة نسب وأحياناً قرابة مكان، أنا أجلس مع هذا العامل كلَّ يوم ثماني أو عشر ساعات، فهو قريب منِّي، أيُّهما أهم وأفضل وأحسن النَّفقة على القريب أم على البعيد.

سلسلة فقه الأولويات تقدم معالم بين أيديكم عن الأفضل والأحسن والأنسب حتى لا ينشغل أحدنا بالمفضول ويترك الفاضل، وحتى لا يهتم بالفروع ويترك الأصول.

وأتمنى عليكم أن تحفظوا عناوين هذه المعالم، ثمَّ نمارسها في سائر أعمالنا الحياتية والإيمانية حتَّى تتحول عندنا إلى ملكة نمشي عليها فنسعد في الدُّنيا وفي الآخرة.

المعلم الأوَّل: أولوية العلم على العمل:

قبل أن تعمل بأيّ شيء لابد أن تتعلم ما هو هذا الشَّيء وكيف يصار إلى إعداده وتقديمه وتعليمه.

لا تعمل شيئاً دون أن تتعلم عنه، لا في أمور الحياة ولا في أمور الدِّين.

لا تتكلم بشيء في الدِّين قبل أن تتعلَّم عنه والعلم مقدَّم على العمل.

فالعلم يسبق العمل وهو دليله ومرشده...

والعلم إمام والعمل تابع...

وعالم واحد أشدُّ على الله من ألف عابد...

ومن عمل من غير علم كان ما يفسده أكثر ممَّا يصلحه، تعجب أحياناً من بعض العمال يقول: أعلم كلَّ شيء، خبير بالصِّحية وخبير بالكهرباء وخبير بالطِّينة وخبير بالطِّلاء فإذا سلمته مشروعاً أفسد كل شيء أفسد الصِّحية والكهربائية والطِّلاء والطينة وكلفك أكثر ممَّا وفر عليك.

من عمل في غير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه.

وضع الإمام البخاري في صحيحه بابا سمَّاه "باب العلم قبل القول والعمل" قبل أن تتكلم تعلَّم، قبل أن تعمل تعلَّم.

وقال شراح صحيح البخاري: أراد أنَّ العلم شرط في صحة القول والعمل فلا يعتبران إلا به فهو مقدَّم عليهما.

قال الإمام الحسن البصري: العامل على غير علم كالسَّالك على غير طريق، والعامل على غير علم يفسد أكثر ممَّا يصلح.

اطلبوا العلم طلباً لا يضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلباً لا يضر بالعلم فإنَّ أقواماً طلبوا العبادة وتركوا العلم حتَّى خرجوا بأسيافهم على أمَّة محمَّد صلى الله عليه وسلم ولو طلبوا العلم لم يدلُّهم على ما فعلوه.

ومن غياب هذه الأولوية تقديم العلم على العمل، يرتكب أناس من المسلمين أخطاءً بالغةً فربما وجدت رجلاً حضر درساً أو درسين وسمع محاضرةً أو محاضرتين، وربَّما وجدت طالباً للعلم درس سنة أو سنتين يريد هذا الرَّجل أو هذا الطَّالب أن يفتي النَّاس وأن يصحح لهم أعمالهم وأن يخطئ لهم مواقف.

على حين تجد أنَّ العالم الجهبذ لا يجيب سائلاً إلا بعد تحرٍ ومراجعة.

قال أبو حسين الأشعري: إنَّ أحدهم ليفتي في المسألة ولو وردت على عمر بن الخطاب ﷺ لجمع لها أهل بدر.

إنسان يسأل سؤالاً فتجد أحد الحاضرين يجيب، ولو سألنا هذه المسألة سيِّدنا عمر ﷺ لجمع لها أهل بدر – ثلاثمائة وثلاث عشر رجلاً–، وهذا الرَّجل يقول: لا، لا هذا يجوز، أنا أعلم هذا، لا يجوز هذا حرام.

كان سيدنا سعيد بن المسيب سيد التابعين لا يكاد يفتي إلا قال: اللَّهم سلِّمني وسلِّم مني.

وروى أبو داوود عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: أَصَابَ رَجُلاً جُرْحٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ثُمَّ احْتَلَمَ، فَأُمِرَ بِالِاغْتِسَالِ، فَاغْتَسَلَ فَمَاتَ، فَبَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: ((**قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ، أَلَمْ يَكُنْ شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالَ**)) [أبو داود]

العلم قبل العمل...

المعلم الثَّاني: أولوية الفرائض على السُّنن والنَّوافل:

المأمور به في الشرع نوعان: مأمور أمر به على سبيل الوجوب والإلزام وهذا يسمَّى فرض وواجب، أو مأمور به على سبيل الاستحباب والسُّنة وهذا يسمَّى سنة.

فالمأمور إمَّا فرضاً أو سنةً. وفقه الأولويات يقتضي أن نقدم الأوجب على الواجب، والواجب على المسنون.

ويقتضي فقه الأولويات أن نتساهل في السُّنن والمستحبات عند الحاجة ما لا نتساهل به في الفرائض والواجبات.

من هذا الباب يظهر خطأ كثير من النَّاس بانشغالهم بالسُّنن والتَّطوعات وانشغالهم عن الفرائض.

فبعض الشَّباب أو الفتيات أو الرِّجال أو النِّساء ربَّما انشغلوا بكثرة صلاة النَّافلة وصوم النَّافلة وحجِّ النَّافلة وتركوا برَّ الوالدين ورعاية الزَّوج والأولاد.

برُّ الوالدين فرضٌ، وصلاة قيام اللَّيل سنةٌ، والفرض مقدَّم على السُّنة.

رعاية الزَّوجة فرضٌ، وتكرار الذَّهاب إلى العمرة سنةٌ، والفرض مقدَّم على السُّنة.

تربية الأولاد فرض، والذَّهاب إلى الحجِّ بعد حجِّ الفريضة سنَّة، والفرض مقدَّم من السُّنة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((**لَا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَصُومَ -أي: تطوعاً- وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ**)) [البخاري]

فلا تصوم المرأة إلا بإذن زوجها، لأنَّ حقه عليها أوجب من النَّافلة.

بعض النِّساء الصَّالحات تنشغلنَّ عن أزواجهنَّ أو رعاية أولادهنَّ بمتابعة ختمات القرآن والأوراد، فهؤلاء انصرفنَّ عن الواجب إلى السُّنة.

رعاية الأولاد واجبٌ، رعاية الزَّوج واجب، وهو مقدَّم على النَّافلة.

أيها الإخوة: هذا معلمان من معالم فقه الأولويات:

المعلم الأوَّل: أولوية العلم على العمل.

المعلم الثَّاني: أولوية الفرائض على السُّنن.

والحمد لله ربِّ العالمين

* * *